تكامل صفات المؤمنين
والبناء النبوي... في البناء الحضاري
«٣»

ما زلنا في حيز المتابعة لعطاء المعلم القرآني من خلال الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة (محمد) ﷺ، حيث خاطبت الآية الأولى بحزم ووعيد أولئك الذين طغى عليهم التقليد الأعمى، ومرضت منهم القلوب بقول اللّه جل ثناؤه:﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

وكشفت الآية الثانية عن أن الذين يقعون في هاتين الموبقتين بعد توليهم عن الجهاد، وعدم صدقهم مع اللّه هم الذين لعنهم اللّه بسبب زيغهم ومظاهرتهم للباطل على الحق، وأعمى أبصارهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[الصف:٥].

ولقد سُعدنا بالذي وقفتنا عليه نصوص السنة المطهَّرة من أن النبي ﷺ ـ وهو المبين عن اللّه ما أراد ـ وضع أولئك الذين كانت يده الصناع تصوغهم بتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم بنور التربية النبوية، وراحوا يرتادون للإنسانية مسالك البناء الحضاري المبصر.. وضعهم أمام الحقيقة التي تقررها هاتان الآيتان الكريمتان، وآصرةِ النسب بينهما وبين ما ورد في فاتحة سورة النساء.

ولعلنا لا نبعد النجعة إذا نحن تحولنا اليوم شطر سورة الرعد ـ وهي سورة مدنية أيضاً ـ كيما نشهد مرة أخرى تكامل البناء في المنهج الرباني و اللّه أعلم بما يصلح عباده ـ وكيف أن معالم القرآن تجعل صلة ما أمر اللّه به أن يوصل، ضمن مجموعة من الصفات التي يزداد بها سلوك أهل البصيرة المؤمنين الذين هم أولو الألباب.

وما من ريب في أن هؤلاء الذين تتوافر فيهم تلك المجموعة من الصفات السنيَّة، تلك التي تؤذن بتكامل بنية الإنسان من حيث الوجود الحقيقي في ضوء الرسالة التي يتحرك تحت رايتها، هم المرشحون لبناء المجتمع الذي لا يئنُّ تحت وطأة الضعف والتمزق، ولا يعاني من تفكك الأسرة، وتقطيع أواصر القربى، كما لا تحكمه فوضى الأهواء، أو مشاعر رهبة الظالمين، والبعد عن موئل العقيدة، وأخلاق أهل الإيمان.

وإليكم الآيات التي جاءت على ذكر الخلائق المومى إليها بدءاً من الآية السادسة عشرة في سورة الرعد.

يقول ربنا جل جلاله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي أعقاب هذه الآيات التي أشرقت بما نرى من سنيٍّ الصفات نقرأ في صفات من هم على النقيض من أولئك المؤمنين الصادقين أولي الألباب لا عبيد الأهواء والنزوات ـ وبضدِّها تتميز الأشياء ـ نقرأ قول اللّه تباركت أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد ففي ضوء ما تزخر بها هذه الآيات الكريمات بشقَّيها من مقومات البناء المحكم للإنسان المكرَّم المؤهل للخلافة في الأرض، وللمجتمع في إطار الأمة، وبخاصة على الصعيد الاجتماعي من نافذة الضياء الإسلامية، ليؤخذ بها فتصحب الثقافة والفكر والسلوك، وما تقدم ممن أدركتهم الخيبة، فكانوا عناصر تخلخل وزعزعة وخبال لأنفسهم وللمجتمع كي تُحذر وتُجتنب..

في ضوء ذلك من حق كل واع متبصِّر ينشد الحقيقة أن يقول: إن دعوى الانتماء إلى أمة يفترض أن تحكم ثقافتها التي تجمع بين المعرفة والسلوك ومناهجها في بناء الحياة وعمارة الأرض وطريقتها في التفكير، ومسالكها في التشريع القائم على مقاصد الخير وتحقيق سعادة الإنسان في العاجلة والآجلة:.. إن هذه الدعوى تحمل في طياتها مسؤوليات كباراً أمام اللّه ثم التاريخ، ينبغي ـ بل يجب ـ أن تواجه بشجاعة إيمانية ووعي واقعي، يرتفعان بالأجيال بناءً وإعداداً يحملان تكافؤ الفرص في تحقيق الوجود الذاتي للأمة، ومواجهة التحديات التي تتكاثر وتتنوَّع أسلحة أصحابها يوماً بعد يوم.

وإذا كان الخير يجلب الخير: فما أسرع ما تذكرنا الكلمات الهاديات التي تحتضن تلكم الصفات الخيِّرة التي تؤذن بنورانية أولي النهي وتكرمتهم بأهلية التحلِّي بها.. ما أسرع ما تذكرنا هذه الكلمات بآيات مباركات في سورة «القصص» تشتمل على عدد من الصفات ذات النسب إلى الصفات المذكورة في سورة الرعد، وهي صفات

أسندت إلى أولئك الصفوة الأخيار من أهل الكتاب الذين جمعوا إلى الإيمان بكتابهم الحق ـ قبل التحريف ـ الإيمان بالقرآن الكريم. ذلكم قول اللّه تبارك وتعالى بدءاً من الآية الثانية والخمسين: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٥٢-٥٦] .

* * *

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة... والبناء

«١»

أنى تلفتَّ في ميادين الترجمة العملية لأحكام الإسلام وأخلاقه على أرض الواقع والحركة الدائبة للإنسان والمجتمع من حوله، ومهما تشعبت بك السبل والمسالك على سلَّم الهداية إلى الخير: فأنت واجد بلا ريب أن البشير النذير عليه الصلاة والسلام هو القدوة العملية والأسوة الحسنة في هذا.

وقد كان ذلك منه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ أدعى لأن تأخذ دعوته الخيِّرة أبعادها الحقيقية الناطقة بصدقها في دنيا الواقع، وأن تجد الإنسان الذي يترجم ما آمن به، وانشرح صدره له، إلى عمل وسلوك.

ولقد رأينا فيما سبق بعضاً من توجيهاته عليه الصلاة والسلام في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، بياناً لما ورد في ذلك من آيات بينات في عدد من المواطن في كتاب اللّه عز وجل، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد:٢١] وقوله جل شأنه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء: ٣٦] وقوله سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٥].

فإذا توجهنا صوب التطبيق العملي وجدناه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يأخذ نفسه بهذا الهدي القرآني، وبما بينه للناس فيه على أكمل وجه وأفضله..

يأخذ نفسه بذلك ـ وهو يمسك بكلتا يديه مقومات البناء الشامل للفرد والمجتمع والدولة، وعناصر النماء المثمر، ليضعها موضعها المناسب على طريق المسلمين؛ كيما يكونوا قادرين على بناء أنفسهم، وبناء مجتمعهم الأمثل، وهم في الطريق إلى بناء

الدولة جنوداً للقائد المؤيد بالوحي، بل كيما يكونوا أقدر على أن يقدموا للإنسانية معالم الحضارة الإنسانية بحق، ويبلغوا بها المرحلة التي لا يغني غناءها منهج لا يرتبط بعقيدة التوحيد، ولا يعطي عطاءها تجارب مبتورة عن مقتضيات فطرة الإنسان تتجاهل طبيعة تكوينه كما خلقه اللّه وأودع فيه من الأهلية ما أودع، وطبيعة العلاقة التي يجب أن تحكم صلته بالكون والحياة!!

روى أبو داود في «سننه» عن عمر بن السائب: «أن رسول اللّه ﷺ كان جالساً يوماً، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة، فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له النبي ﷺ فأجلسه بين يديه».

كما أخرج عن أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول اللّه ﷺ يقسم لحماً بالجِعِرّانة. قال أبو الطفيل: وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي ﷺ، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هي؟ فقالوا: هي أمه التي أرضعته».

ذلكم هو طريق البناء الاجتماعي الأمثل، في علاقة الناس بعضهم ببعض، بدءاً من الحلقة الأولى، حتى لو كانت القرابة من الرضاع.

وصلى اللّه وسلم وبارك على الأسوة الحسنة نبينا محمد رسول اللّه، ما كان أعظمه في هذا الصنيع مع والديه وأخيه من الرضاعة!.

إنها نافذة فسيحة تطل على جو فسيح رحب يرسم للأمة طريق الوفاء وحسن التعامل أداءً لحقوق أصحاب الحقوق التي لا يتجاهلها إلا غبيٌّ سفه نفسه ولم يعرف للوفاء ـ على الأقل ـ طعماً.

وهذه النافذة المباركة المشرفة مؤيدة بوجوب الوقوف عند أمر اللّه ورسوله، الأمر الذي يكون طريقاً لمرضاة اللّه التي تسعد في الدارين، ويُحكِم بناء الأسرة والمجتمع على أفضل الأسس وأقومها، وذلك من بعض فضائل هذا الدين.

والحمدللّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة في البناء
«٢»

أسعدنا ـ من قريب ـ اصطحاب واحدة من الصور العملية التطبيقية في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، لما جاء في القرآن الكريم في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، ولما دعا إليه الرسول ﷺ نفسه على هذه الساحة التي تنتج آثارها في توفير القوة للبنية الاجتماعية المفسودة في ظل شرعة الإسلام؛ ناهيك عما يكون في ذلك من طاعة اللّه وتقواه!

تلك الصورة هي ما رأينا من إكرامه ﷺ، وما كان من حسن صلته لأولئك الذين كان إحسانهم إليه في حقبة الرضاعة سبباً في علاقته بهم؛ فهو يصل ـ بمزيد من العناية التي يؤذن بها العرف يومذاك ـ أمه من الرضاعة، وأباه من الرضاعة، وأخاه من الرضاعة.

هكذا اتسعت الدائرة في وضع الهداية القرآنية في شأن الوالدين ولو كانا من الرضاع موضع العمل والالتزام عند التعامل، حتى شملت في سلوك الرسول ﷺ ـ وهو المسؤول الأول المؤتمن على البناء الخيِّر في المجتمع ـ برَّ الوالدين من الرضاع، وصلة من يهمهما ودُّه وهو أخوه من الرضاع.

وإنك واجد أن كلَّ ما دلت عليه الآيات في شأن الوالدين على صعيد التراحم والصلة والودِّ الذي لا يقتصر عليهما، بل يتعدى إلى من بودِّه رضاهما وسرورهما قد وضعه الرسول ﷺ موضع العناية الفائقة، وكان بذلك نعم القدوة الحسنة للأمة في وضع ما جاء في الكتاب الكريم من هديه عليه الصلاة والسلام: على ما هو جدير به على ساحة السلوك.

والحق أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يكشف في سلوكه العملي الأهمية البالغة لتماسك المجتمع المسلم على أساس من العقيدة الربانية وحسن الخلق في تعامل الناس بعضهم مع بعض، خصوصاً وأن هذا المجتمع الوليد في المدينة كان هو أيضاً يؤدي دور القدوة للمجتمعات الأخرى التي تصدق مسيرتها في الانتماء إلى أحكام الإسلام وآداب الإسلام.

من أجل ذلك طلعت علينا سيرته الكريمة بتوسيع دائرة البر غير المتكلَّف أكثر وأكثر، حتى شملت صلة من كانوا وُدَّ زوجه الصادقة العاقلة الحصيفة السيدة خديجة رضي اللّه عنها.

إنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ كان يتجه بذلك صوب القضاء على كل ما يكون سبباً أو عاملاً من عوامل التمزق والضعف وكل ما يتنافى مع الفطر السليمة والأخلاق الكريمة. الأمر الذي يتيح لمجتمع العقيدة أن يتوَّج بما كان يرمي إليه ﷺ من قوة لهذا المجتمع ونماء. بله أهلية الوفاء بحاجات الفرد والجماعة في الميادين كافة.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها قالت: «ما غِرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرت على خديجة رضي اللّه عنها، وما رأيتها قط، ولكن كان يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة فقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة؛ فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: **إنها كانت وكانت... ولي منها ولد**».

وفي رواية: «وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن».

أفلا نذكر ما روى الشيخان وأحمد وغيرهم ـ والأمر أمر خلقه عليه الصلاة والسلام في حسن التعامل مع ودِّ خديجة ـ أنها ـ رضي اللّه عنها وأرضاها ـ آمنت به وقد كفر به الناس، وصدقته من أول الطريق وقد كذبه الناس، وواسته بمالها، وعاونته المعاونة التي يشرق بها التاريخ برأيها الصائب حين قالت له ـ وقد جاء

يرجف فؤاده من فجأة ملاقاة جبريل عليه السلام ـ: « **و اللّه ما يخزيك اللّه أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق**»

فإنسان هذه بعض شمائله في نظرها حاشا اللّه أن يخزيه، وما يخاف عليه لمة من الشيطان، بل يكون الموفّق التوفيق كلَّه كما تقتضي ذلك حكمة اللّه تبارك وتعالى وسننه في خلقه.

وكم هي عظيمة دلالة هذا التعليل لعدم الخزي من خديجة رضي اللّه عنها على عقلها الكبير، وحصافتها المتميزة، وصدقها مع النبي عليه الصلاة والسلام.

والأثر العظيم لهذا الموقف منها رضي اللّه عنها في تلك المرحلة الصعبة من مراحل الدعوة الجديدة لا يخفى.

هكذا ـ ومن خلال الوقائع ـ كان يرى عليه الصلاة والسلام أن خديجة جديرة بأن يحرص على صلتها وودِّها بعد موتها ـ رضي اللّه عنها ـ بصلة خلائلها ومن كانت تود، وإنه لصنيع نِعمَّا هو بياناً للقرآن الكريم بالعمل والسلوك.

وعائشة رضي اللّه عنها تكشف لنا ـ فيما روت ـ عن الأمر بكل وضوح، وتتحف الأمة ـ وهي الزوجة العالمة التي رضيت لنفسها ما رضي رسول اللّه ـ بواحدة من خصال النبي ﷺ وشمائله في البر والصلة والإحسان وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي أمر اللّه تعالى بها وأوضح أبعادها بنفسه عليه الصلاة والسلام.

ولقد كانت رضي اللّه عنها أمينة كل الأمانة في هذا الذي تقول وتروي عنها قبل أن تعرف عنها الكثير!

إنها الدروس التي تشكِّل الإفادة منها، وتبيِّن مراميها وأبعادها على ساحة العمل والممارسة ـ على اختلاف الأزمنة والأمكنة ـ ظاهرة صحة في المجتمع المسلم، نرجو أن تسهم الإسهام كلَّه في الانتصار على ما قد تبتلى به المجتمعات الإسلامية من أمراض وافدة من الغرابة بمكان: جهلها أو تجاهلها.

ظاهرة الصحة والأسوة الحسنة في البناء

«٣»

كلما تأمل المؤمن ـ على هدي إيمانه ـ في سيرة النبي ﷺ فأحسن التأمل، ازداد يقيناً بأن الصورة المثلى للعمل بما جاءت به معالم الكتاب الكريم، ونطق بها منهج هدايته الربانية القويم، إنما تكون بأخذ النفوس بطاعة الرسول الكريم وحسن التأسي به، وأن الحركة البناءة التي تهدف إليها الأمة، كيما تتحوَّل بالواقع إلى ما يجب أن يكون، لابدَّ أن تضع في حسابها ـ وهي تتجه بعزم وحزم وجهة التحول هذه ـ أن تكون الحركة في خضم الحياة مستنيرة بما يعنيه قول اللّه تعالى:﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:٨٠] وقوله خطاباً للأمة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١] مهما تنوعت الميادين، وتعددت عناوين الحركة ووسائل الإنماء المتوائمة مع سنن اللّه الماضية في دنيا الثقافة والسياسة، والاجتماع والاقتصاد وما يمت إلى ذلك أو بعضه بسبب

ولقد شهدنا ونحن نصطحب هذه الحقيقة من قريب نموذجين في سنته عليه الصلاة والسلام على صعيد العمل بهداية القرآن في الحقل الاجتماعي وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وبخاصة ما كان على صعيد اللبنات الأولى في بنية المجتمع، حيث اتسعت دائرة البر والصلة والإحسان فيما سنَّ للمسلمين من ذلك، إلى إكرام الوالدين من الرضاع والإحسان إليهما، وإكرام أخيه من الرضاع والإحسان إليه وتقديره، وحيث اتسعت دائرة الصلة ـ كما تُرى في تصرفاته السامية ـ والوفاء لزوجه خديجة رضي اللّه عنها بعد موتها إلى حيث بات يتعهد خلائلها ومن كانت تودهم في حياتها. وقد ثبت كل ذلك في السنة من سيرته المطهرة.

وأنت واجد أن الصحابة رضوان اللّه عليهم ـ وقد رباهم رسول اللّه تعليماً وتزكية بالكلمة والقدوة، والممارسة العملية على العلم والعمل في إطار عملية البناء الكبرى ـ قد أدركوا من حسن التأسّي برسول اللّه ﷺ وطاعته ما سما بهم إلى أن جعلوا ذلك طريقهم إلى العمل بكتاب اللّه والوقوف عند حدوده.

فالخطاب بقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١] خطاب للمسلمين ذكورهم وإناثهم في كل زمان، وهم في مقدمتهم حيث شهدوا رضوان اللّه عليهم التنزيل. وجعل طاعة الرسول من طاعة اللّه أمر لا تخفى دلالته على ذي بصيرة.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أنهم بطاعتهم هذه وحسن تأسيهم ما فتؤوا يغذُّون السير نحو الهدف الكبير إعلاءً لكلمة اللّه في الأرض. ويمدون المجتمع بالقوة والتماسك بشكل عفوي من طريق استمساكهم بهدي النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو بيان القرآن الكريم.

وإذا كان الخير يجلب الخير فلنتجه إلى وقائع أخرى تزيدنا يقيناً بهذه الحقيقة؛ من ذلك ما كان من عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما ـ كما رأينا من قبل ـ من صلته أهل ودِّ أبيه مسارعة إلى العمل بهدي النبي ﷺ في هذا الأمر الجلل؛ فقد روى مسلم عن عبد اللّه بن دينار عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة، وعمامةٌ يشدُّ بها رأسه؛ فبينا هو يوماً على ذلك الحمار. إذ مرَّ به أعرابي، فقال: ألست ابنَ فلا بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامةَ قال: اشدد بها رأسك؛ فقال له بعض أصحابه: غفر اللّه لك، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروَّح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك! فقال: إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي**» ، **وإن أباه كان صديقاً لعمر.**

ولا شك في أن أهل ود الأم داخلون في هذا التوجيه، غير أن الكلام جرى مجرى التغليب.

وعلى ساحة أكثر اتساعاً لما يشعرك بالصياغة الفاعلة المتكاملة التي صاغ عليها رسول اللّه ﷺ من انتدبهم لبناء حضارة الإسلام، ونمَّى فيهم روح الانضباط بضوابط الحق، الأمر الذي سلك بالمجتمع سبيل العزة الإيمانية والسلوك القويم عند الفرد والجماعة، وارتفع به إلى مستوى التآزر والتماسك في الأحوال كافة.. على هذه الساحة يطالعنا ما روى ثابت البناني عن أنس رضي اللّه عنه قال: خرجت مع جرير بن عبد اللّه البجلي رضي الله عنه في سفر، فكان يخدمني؛ فقلت: لا تفعل، فقال: إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول اللّه ﷺ شيئاً آليت أن لا أصحب أحداً منهم إلا خدمته. رواه البخاري ومسلم.

وبعد: فلا تثريب على قائل أن يقول: إن هذا السلوك من الصحابة كان في الواقع آية استقامة الرحلة التي حمل المسلم أعباءها في دنيا البناء المتميز والنماء الذي لا تعوزه ضوابط الحق والوفاء وإنسانية الإنسان.

* * *

ظاهرة الصحة
والأسوة الحسنة في البناء... وأم أيمن

« ٤ »

الجيل الفريد في التاريخ، أولئك الذين رافقوا ـ قبل الإسلام ـ سيرة المجتمع الجاهلي، وما عني به ـ مع ما كان يسوده من بعض مكارم الأخلاق ـ من مصاعبَ هي انعكاسٌ للصراع القبلي، والتقليد الأعمى للآباء وإن كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، والركون إلى الكهانة والخرافة في ظل الوثنية الخرقاء..

الذين رافقوا هذه المسيرة، ثم أكرمهم اللّه بالإسلام، وكانوا مع رسول اللّه ﷺ في السرَّاء والضراء، والحرب والسلم، والمنشط والمكره، حيث استنارت قلوبهم وعقولهم بالمنهج الرباني في شموله بناء الفرد والأسرة والجماعة، كانت بصائرهم مفتحة على التبدل الجذري الذي أشرقت به قواعد البناء الجديد التي رفعوها بقيادة المصطفى عليه الصلاة والسلام على أنقاض ذلك المجتمع الذي كان يئنُّ تحت وطأة الجاهلية وأعرافها المتراكمة، يوم أفسحوا للكلمة الطيبة «**لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه**» أن تكون صاحبة السلطان في حياتهم وشؤونهم كافة، ما كان منها على صعيد الأفراد، أو الجماعة، أو المجتمع على هدي تلك القيادة الحكيمة التي ترتاد للأمة ـ بل للإنسانية ـ عملية التغيير إلى ما هو الأفضل تبليغاً وبياناً وتطبيقاً عملياً على نور من اللّه ذي الجلال والإكرام.

وكان طبيعياً ـ والأمر كذلك ـ أن تكون تصرفات صاحب الرسالة ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين فيما يقول أو يفعل أو يقرُّ وطاعته من طاعة اللّه ـ نبراساً هادياً للجماعة، يأخذ حقه الكامل من العناية الصادقة والاهتمام البالغ، على حد القاعدة الذهبية: «**عرفتَ فالزم**».

وهذا ما شهده تاريخ التحول عن الجاهلية التي كانت تسود المجتمعات يومذاك إلى الأخذ بمقومات الوجود الإسلامي في المجتمع الجديد في صدر الإسلام، حيث كان الصحابة الكرام عليهم الرحمة والرضوان لا يغادرون ساحة الطاعة للّه ولرسوله، ويتخذون من التأسي بالرسول ﷺ هادياً إلى إحكام البناء للمجتمع المسلم بقيادته عليه الصلاة والسلام، فكانت معاناتهم ـ وهم يقومون بدور النقلة ـ ترجمة عملية لما جاء في هدي الكتاب الكريم وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً خير بيان.

ولقد يعنينا هنا أن نشير إلى ما تزخر به كتب السنة المطهرة من متابعة الصحابة لتصرفاته على صعيد الأسرة وصلة الأقارب والأرحام، بل وفي الدائرة الأوسع في المجتمع الوليد.

والعهد قريب بما زودتنا به السنة من نماذج ناطقة بذلك على صعيد البناء الاجتماعي وما تتطلبه خلاياه الأولى من إحكام يقود إليه الودُّ النابع من القلب طاعة للّه ورسوله، وكانت تلك النماذج وجوداً حياً متحركاً لما قررته آيات الكتاب الكريم في شأن صلة الأرحام وبر الوالدين، واتسع البيان النبوي في سلوكه عليه الصلاة والسلام، لتجاوز الأقرباء النسبيين في البر والصلة، إلى أقرباء الرضاع، ولتجاوز الوفاء للرحم في حياته إلى صلة وده ومن لا توصل الرحم إلا به؛ كالذي رأينا من الوفاء لخديجة رضي اللّه عنها بعد وفاتها وفاءً تجاوز صلتها في حياتها إلى صلة خلائلها والإحسان إلى ودها بعد أن أفضت إلى ربها.

والحق أن هذه النصوص من السنة العملية في حياة أسوة المسلمين الحسنة عليه الصلاة والسلام، قد بينت ـ فيما بينت ـ ما لقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴿٢١﴾**﴾[الرعد: ٢١] من أبعاد تتجاوز الحدود التي قد تبدو لأول وهلة، وتفتح آفاقاً لحسن التعامل المفضي إلى إحكام البنية الاجتماعية على صورة تنبعث من الذات ليس للكلفة أو التصنع إليها سَبيل.

وها نحن أولاء نسعد باصطحاب صورة عملية أخرى تجري له ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ مع حاضنته أم أيمن رضي اللّه عنها، وهي صورة تكشف عن بعض مما يشرق به قوله تعالى خطاباً لأكرم الخلق عليه الصلاة والسلام:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم:٤] في فواتح سورة مكية هي سورة القلم، كما تكشف عن بعض من عوامل الرسوخ التي اتسم بها بناء المجتمع في ضوء هديه وسلوكه في تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس صلوات اللّه وسلامه عليه، وما يمارسه من عملية التحويل اليومية، وما يجتهد في وضع كل لبنة مكانها من البنية المنشودة في تناسق وتكامل واضحين.

فقد روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ إلى أم أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناءً فيه شراب، قال: «فلا أدري أصادفته صائماً، أو لم يُرده، فجعلت تصخب عليه وتَذمَّر عليه».

لم يعرف أنس رضي الله عنه سبب ردِّ رسول اللّه ﷺ الشراب الذي قدمته له أم أيمن! أكان لأنه صائم، أم أنه لم يردْه لسبب آخر. ولكن الذي جزم به أن أم أيمن قد جعلت تصخب عليه- تصيح وترفع صوتها - استنكاراً لإمساكه عن ذلك الشراب الذي قدمته له مع علمه بصدقها وحبها أن يشربه وينتفع به، وأنها جعلت تذمَّر أيضاً أي تتكلم بغضب.

ومن الواضح البين: أن الواقعة تدل أبين دلالة على أن الرسول ﷺ ـ وهو سيد العالمين ـ لم ينكر على الحاضنة الأمينة التقية النقية إنكارها عليه، ولا غضبها وصخبها؛ فقد كانت تُدِلُّ عليه ﷺ وبارك عليه، لكونها حضنته وربته حقبة غير قليلة من الزمن.

ولئن كان السمو الخلقي المشرق بالوفاء واضحاً في هذا الذي يرويه أنس رضي الله عنه فإن هنالك دلالة أخرى للواقعة نبصرها في ضوء المعالم الكبرى لمرحلة البناء الكبرى التي كان رسول اللّه ﷺ يرفع قواعدها وينمي في نفوس المسلمين أن يكونوا جند هذه العملية الفريدة في التاريخ، في خاصة أنفسهم، وفي صلتهم بالآخرين، سالكين سبيل الإخلاص وطلب المثوبة عنداللّه، و اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ظاهـرة الصحـة...
والأسوة الحسنة في البناء... وأم أيمن

«٥»

في ظل العناية البالغة التي يوليها الإسلام ـ وهو الدين الذي ارتضاه اللّه لهذه الأمة ـ للبناء الاجتماعي الذي لا نفتقد معه أحكام الدين وأخلاقه، في أسسه وقواعده، وفي ضمانة سلامته واستمراره متماسكاً معافىً يستعصي على الطارىء الدخيل. أعود إلى التذكير مرة أخرى بالقدر الفسيح الذي أعطاه النبي ﷺ للجانب المتعلق بكيان الأسرة، وتماسك الأرحام والأقارب تماسكاً تزينه صلة الأرحام والود والتعاون والإحسان، وهو العطاء الذي لم يقتصر على الكلمة والوصية والتوجيه، ولكنه تجاوز إلى السنة العملية، فكان عليه الصلاة والسلام أكرم مثل وأعظمه لصلة ما أراد اللّه أن يوصل، والعناية بمدِّ جسور الود والإحسان، حتى إلى من كان يودهم ذو الرحم في حياته قبل الموت!

وكان آخر نموذج عرضنا له ورأينا فيه مزيداً من البيان لآيات الكتاب الكريم التي أشرقت بالدعوة الحارّة إلى صلة الأرحام، وكذلك التي نددت بتقطيع الأرحام وجفوتهم، والتي أولت بر الوالدين والإحسان إليهما مزيداً من العناية والحض.. كان آخر نموذج لهذا البيان: ما وقفنا عليه حديث أنس عن واقعة تمثَّل فيها برُّه الواضح عليه الصلاة والسلام بحاضنته أم أيمن رضي اللّه عنها، وإحسانه المتألق إليها، وفاءً بالحق، وحرصاً على وصل ما أراد اللّه أن يوصل؛ فهي التي كانت ذات دالَّة عليه؛ لأنها حضنته وربَّته، وفي الوقت نفسه كانت على درجة رفيعة من اليقين والمحبة للّه ولرسوله، وفقه لمعنى كونه ﷺ رسولاً يتنزَّل عليه الوحي من السماء.

وإني إذ أعود إلى التذكير بذلك أُراني مسوقاً إلى إيراد واقعة أخرى تتعلَّق بهذه المرأة العظيمة رضي اللّه عنها التي أولاها رسول اللّه ﷺ ما أولاها من عظيم التقدير والاهتمام.

ويقتضيني عقد الصلة بين الواقعتين: أن أعيد قراءة النص الذي كانت الواقعة التي جرى الإلماح إليها فيما سبق قد وردت فيه.

وذلكم ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لا أدري، أصادفته صائماً أو لم يرده؛ فجعلت تصخب عليه، وتذمَّر عليه».

هذه هي الواقعة كما رواها هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه، والتي توحي بهذا الموقف الكريم الذي يذكِّر بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وإذا كان هذا اللون من البر والصلة وسعة الصدر قد حدث من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام فأولى بالمسلم أن يكون على ذكر من قول اللّه تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَه وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَه كَثِيراً ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١] فيستمسك بعرى الإحسان وكريم الصلة وحُسْن التعامل فيما هو أدنى من هذه المرتبة قرابةً ورحماً بكثير؛ وذلك ما يطبع المجتمع المسلم ـ مع التنظيم الدقيق ـ بطابع الود، والتصافي. ويجعله أقدر على إنجاز ما توجب المصلحة إنجازه من كل ما يعود على الأفراد بالخير، فقهاً في دين اللّه، وثقافة واقتصاداً واجتماعاً وما إلى ذلك، مع العطاء المثمر كلما دعا داعي العطاء، وذلك بتكامل يُحِلُّ العمل المثمر محله من البناء، ولا يهمل الخلق القويم، والسلوك المستقيم.

أما عن الجديد الموعود به فهو واقعة نقلها إلى الأمة أيضاً أنس رضي الله عنه، وهي تعطي ـ فيما تعطي ـ شذرة من شذرات الضياء فيما بلغته أم أيمن بإيمانها الصادق، ووعيها المستنير، كما تشعر بحرص الصحابة رضي اللّه عنهم على حسن التأسي بالرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، في شأن وصل من يجب أن يوصل، وبرِّ من كان يودُّهم وتقديرهم والإحسان إليهم.

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: «قال أبو بكر لعمر رضي اللّه عنهما بعد وفاة رسول اللّه ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول اللّه ﷺ يزورها. فلما انتهيا إليها بكت، فقال: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عنداللّه خير لرسول اللّه ﷺ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند اللّه تعالى خير لرسوله عليه الصلاة والسلام، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء؛ فهيَّجتهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها».

هذه هي أم أيمن حاضنة رسول اللّه ﷺ التي أكرم اللّه بها هذه الأمة بأن كانت هي الحاضنة الأمينة الحصيفة له عليه الصلاة والسلام، والتي جعلت تصخب وتَذمَّر حين لم يشرب رسول اللّه ﷺالشراب الذي قدمته إليه.

أجل هذه هي أم أيمن رضي اللّه عنها وأرضاها التي بلغ من إيمانها ووعيها لحقيقة هذا الدين وعظمة اتصال الأرض بوحي السماء أن تبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، وقد أذكرها ذلك الأمر البالغ الأهمية زيارةُ أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما، قياماً بما لها من الحق تأسياً بصنيع الرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان دائم الصلة لها، وعدم الانقطاع عن زيارتها.

ألا وإن مجتمعاً تبلغ فيه الحاضنة المربية هذا المستوى من الوعي جدير أن يكون المجتمع الأمثل القدوة الذي يحسن تكوين الرجل والمرأة، على خير ما يكون من الإيمان والوعي وحسن التبصُّر، والقيام بكل ما تمليه ضوابط الشرعة المباركة على صعيد البر والصلة، ورفد هذا المجتمع بروافد الخير والتعاون على البر والتقوى، وتوثيق أواصر الأخوة والرحمية على نور من الهداية الربانية في الكتاب الكريم، وبيانه الفاذ من نبينا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

* * *

الأسوة الحسنة... والبناء وأم أيمن

«٦»

الحق أن الواقعة التي جرت الإشارة إليها فيما سلف من القول، وهي ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه من زيارة أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما لأم أيمن عليها الرحمة والرضوان، وبكائها لأن الوحي قد انقطع من السماء، لا لأنها لا تعلم أن ما عند اللّه خير لرسوله ﷺ، ثم كيف هيَّجهما هذا البكاء، فجعلا يبكيان معها...

الحق أن هذه الواقعة المضمَّخة بعبير الذكرى، وفقه معنى الرسالة، وحرص الشيخين العظيمين على الاقتداء بالرسول ﷺ فيما كان يقوم به من صلة من يجب أن يوصل غنية بالدروس والعظات، وهي عنوان على أن منهج الرسول عليه الصلاة والسلام الذي سلكه في بناء الإنسان على الإيمان والعلم والتزكية، وفي بناء المجتمع على القواعد الراسية التي عمادها الفرد المؤمن القوي، والجماعة المتماسكة المتآزرة هو المنهج الذي يفي بحاجات البناء المتميز المتصوَّر أن يكون ترجماناً حضارياً للمنهج الرباني الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين.

وفي الوقت نفسه: يسلم الفرد والجماعة إلى طريق النماء في شتى جوانب الحياة دون وكس أو شطط. فأبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما يحرصان الحرص كلَّه على بر أم أيمن رضي اللّه عنها؛ لأنها حاضنة الرسول ﷺ، وكان هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ حفياً بها يديم برها والإحسان إليها، ومن ذلك زيارتها.

وفي ذلك تحقيق منهما لحسن التأسي به ﷺ كما هو الأمر الإلهي الذي جاء إنشاءً على صورة الخبر، كما أن فيه عملاً بما دعا إليه عليه الصلاة والسلام من توسيع ساحة البر، وأن من هذا البر أن يبرَّ المرء أهل ود من كان المتوفى يبرهم في حياته. ألم تر قول أبي بكر لعمر: «انطلق بنا نزور أم أيمن كما كان رسول اللّه يزورها».

ثم إن هذه الصحابية الجليلة برهنت على أنها ـ بجانب التربية والحضانة لرسول اللّه ﷺ ـ تحمل بين جنبيها قلباً مفعماً بالإيمان، وملكة قادرة على تبين الأمور وردها إلى أصولها الكبرى؛ فهي ـ على حبها للمصطفى عليه الصلاة والسلام ـ لم تبك عندما رأت زائريها رضي اللّه عنهما؛ لأنها لا تعلم أن ما عند اللّه خير لرسوله ﷺ؛ ولكنها بكت انقطاع الوحي من السماء. وليس عجباً من العجب أن يذكرنا هذا الموقف بأن للرسول ﷺ النصيب الأوفى من هذا الفهم العميق؛ فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

أن تصل المرأة المسلمة إلى هذا المستوى من حب اللّه ورسوله، وتذوق ـ على هذه الصورة الأخاذة ـ لحلاوة الإيمان ووعي لمفهومات تلك القضية الكبرى في الإسلام وعياً يبلغ بها أن تبكي لانقطاع الوحي من السماء ـ والوحي مصدر الخير والهداية ومنبع السعادة للعباد في العاجلة والآجلة ـ .. أن تصل المرأة المسلمة في المجتمع الوليد إلى هذا المستوى الذي تتقاصر دونه الأعناق؛ ظاهرة قوة في الظاهر والباطن تدل أوضح دلالة على صلاحية وسلامة المنهج النبوي الذي قام على نور من الكتاب الكريم، وبنى عليه الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى.. المنهج الذي ذلَّل الطريق للطاقات كافة أن تعمل عملها في رفع قواعد البناء الخيِّر حيث تتضافر الجهود عن إيمان وتصميم، وتنمو من خلال القيام به طلباً لمرضاة اللّه عز وجل، حوافز الاستمرار المنتظم عند الرجل والمرأة جميعاً دونما طلب للعافية من المسؤولية، أو استرخاء في حمل الأمانة التي قلدها الإنسان المسلم بين يدي رب العالمين.

والعمل ابتغاء مرضاة اللّه مهما كلَّف من البذل والجهد يظل باعث قدرة متجددة يصحبها انشراح الصدر والارتفاع فوق الصوارف المنبعثة من داخل النفس، أو المتحدية من خارجها؛ فاللّه جل وعلا لا تخفى عليه خافية ولا يضيع عنده عمل عامل، أوليس هو القائل جل شأنه في سورة النساء:﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾** ﴾ والقائل في سورة النحل:﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾** ﴾.

فكل شيء عنده ـ سبحانه ـ بمقدار، وما على المكلَّف إلا أن يخترق حجب الصوارف، ويشمر عن ساعد الجد في مزاولة البناء المطلوب إسهاماً في العمل على إنشاء الحياة الإسلامية التي تبرز على الصعيد الإنساني ترجماناً ناطقاً بأحقية دين الإسلام، وأنه المعتصم الوحيد للبشرية التي تعاني ما تعاني هنا وهناك.

وانظر إلى هذا الشمول الذي يتناوله خطاب التكليف ويلقى كل عامل ـ ذكراً كان أو أنثى ـ ما قدَّم، على مختلف الساحات والميادين، ذلكم قول اللّه جل ثناؤه في سورة آل عمران ـ خواتيمها ـ :﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾**﴾.

وبعد: فإن واقعة الزيارة التي قام بها أبو بكر وعمر لأم أيمن وما أشرقت به من صنوف الهداية والخير: هي بالنسبة لأمتنا زيارة يذكرها التاريخ بكل إجلال، وهي لهذه الأمة الماجدة عنوان التأسي والوعي والتكامل في خُطا السلوك.

ثم هي للنساء ـ بخاصة ـ عنوان وعي المرأة المسلمة المنبعث من إيمانها الصادق، وتقوى قلبها المطمئن بذكر اللّه ومحبة رسول اللّه، وعمق تفكيرها على تلك الصورة التي قد لا يتصور الكثيرون أن تكون.

فهل للفتاة المسلمة اليوم أن تدرك دورها الحقيقي في حمل رسالة الإسلام على الوجه الذي يتسق مع تكوينها ومسؤوليتها، الدور الذي نرى صورته في وعي أم أيمن ذات القلب الموصول باللّه ، وصاحبة العقل المرتبط بالمنهج الرباني القويم؟!

* * *

من الهدي النبوي... على صعيد البناء
سلامة الغاية والوسيلة

كثيرة كثيرة هي شكاوى الرواد والمصلحين من قلة الإخلاص، وفتور الهمم والعزائم، والنظر إلى الأغراض الشخصية القريبة؛ في إعراض بعض الشيء عند الغايات الكبار التي ينبغي أن تقود الأعمال، وتحرك العزائم على طريق الغاية الكبرى ـ وهي إعلاء كلمة اللّه ـ.

ولقد يكون من الخير أن نذكّر أنفسنا ومن ولاّنا اللّه أمرهم ـ على سبيل المناصحة والتعاون على البر والتقوَى ـ بأن التعاليَ عن الدنايا، والنهوض بالأعباء الجسام منوط من حيث الغاية والوسيلة بمقدار ارتباط الأمة بمعالم كتابها الكريم، وهدي نبيها عليه الصلاة والسلام، قولاً كان أو فعلاً أو إقراراً، وما كان من سيرته العملية وسير أصحابه عليهم الرضوان، ثم من تبعهم بإحسان، حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.

والعهد قريب بما وقفنا عليه واحد من المعالم القرآنية، من الارتباط النيِّر المكين بين عظم الغاية وإشراقها ـ وهي تحقيق عبودية اللّه عز وجل في النفس، والأسرة، والمجتمع، وعلى كل صعيد في ميادين الحياة كافة ـ وبين بواعث العمل البنّاء، وحوافزه العميقة ظاهراً وباطناً، ويا له من ارتباط وثيق.

ومعلوم يقيناً توكيد ذلك في قوله تعالى ـ بعد الكلام عن الحقيقة الكبرى وهي الغاية التي من أجلها خلق اللّه الجن والأنس ـ:﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَه هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨].

وفي صورة من صور الممارسة لعملية البناء الوطيدة في الإنسان والمجتمع، نجد في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو يمارس تلك العملية المباركة بالقول والفعل والممارسة والقدوة ـ ما يزيد هذه القضية وضوحاً على وضوح. ذلكم ما روى الإمام أحمد عن حبَّةَ وسواءَ ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً، أو يبني بناءً ـ وفي رواية ـ أو يعمل عملاً فأعنّاه عليه؛ فلما فرغ دعا لنا وقال: «**لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه اللّه ويرزقه**» ورواه ابن ماجه والطبراني وابن سعد وغيرهم.

أرأيت هذا التوجيه النبوي الكريم ـ وهو صورة من صور البيان للآيات التي مر ذكرها على هذه الساحة ـ بشفافيته في الدخول إلى القلوب، ودقته في التنبيه على بعض الثوابت في الموضوع الذي نلمح إليه؟

«يعمل عملاً» أو «يبني بناءً» أو «يصلح شيئاً». وعندما أعانه ذلكما الصحابيان على ما كان يعمل أو يبني أو يصلح، دعا لهما ثم أوصاهما بهذه الوصية التي تبدو ذات علاقة وثيقة ببناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على سلامة الغاية التي تكون مطمح نظره وهو يكدُّ في هذه الحياة، إلى مولاه، وأن ينهد إليها بما يناسبها من الوسيلة «**لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما**».

إنه لا يريد لهما أن يتجاوزا الحدود في طلب الرزق من أجل أن يصلا إليه، أو أن ينحدرا إلى مستوىً لا يليق بالمسلم الذي من المسلَّمات عنده أن الأرزاق والآجال بيداللّه.

فالمسلم يسعى وراء القيام بالواجب، وعندما يفعل ذلك آخذاً بالأسباب المشروعة فإنما تحركه بواعث إيمانية من أعماقه يبتغي من ورائها مرضاة اللّه عز وجل إنفاذاً لأمره جل شأنه بالسعي وذلك بقوله تعالى في سورة الملك: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾**﴾ ونظائره في الكتاب الكريم، وما جاء في السنة المطهرة في هذا الشأن.

لذا كان اعتقاد أن الأرزاق بيد اللّه وهو ـ سبحانه ـ الرزاق ذو القوة المتين لا يعني ـ بحال ـ القعود والتهاون والكسل، لا: ولكن يعني ـ كما سلفت الإشارة غير مرة ـ سلامة الغاية وسلامة الوسيلة في إطار العبودية الخالصة للّه عز وجل.

فتحقيق العبودية للّه تبارك وتعالى في كل ما يأتي المؤمن أو يذر: مطلب أسمى. وما وراء ذلك فإلى اللّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فالخلق والأمر له وهو رب العالمين.

لقد كان رسو اللّه ﷺ ـ كما آذن به الحديث المتقدم ـ يمارس ـ وهو القدوة الحسنة ـ عمله في الحياة وأعانه اثنان من رجاله على ذلك، وأراد وهو يعمل على إحكام بنية الإنسان المسلم القادر على الإسهام في عملية البناء الكبرى بآفاقها وأبعادها.. أراد لهما أن يكونا عند الذي أراد ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

* * *

البنية الاجتماعية
وصور من الهدي النبوي

«١»

ما أحسبني أجافي الحقيقة أو أجفوها إذا قلت: إن الصور العملية التي كانت من هدي النبوة في بيان الكتاب الكريم والتي أشرت إليها من قريب، تأخذ قوتها في الفاعلية والتأثير ـ بجانب كونها بياناً لمعالم الكتاب العزيز ـ أنها صدرت عن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام وهو في قلب المعركة، معركة بناء الحياة في عمليته المتعددة الميادين والمتشعبة الأطراف. فهو يقول ما يقول ويفعل ما يفعل ويقر ما يقر من عمل أصحابه، وأداء الأمانة في ممارسة الحياة وارتياد ميادينها بالعمل والتنظيم وفي بناء الفرد والمجتمع وإعداد الأمة إعداداً يتفق مع ما أكرمها اللّه به من جعلها خير أمة أخرجت للناس، وجعلها كذلك وسطاً تشرف بالشهادة على الناس.. كل أولئك ليلَه ونهاره ـ فداه أبي وأمي ـ ديدنه ودأبه. ولا تسل عن صبره ومصابرته عليه الصلاة والسلام من أجل تحقيق ذلك.

والواقع أن تلك الصور قد استوقفتنا ونحن نرتاد بعضاً من عطاء الآيتين الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة والآية السادسة والأربعين من سورة النساء. ولا تخفى على الناظر في النصوص ملامح النهج اليهودي ـ من خلال تلك الآيات ـ في سلوكهم مع الرسول ﷺ والإسلام نفسه والمسلمين، وكيف دُعي المسلمون إلى أن يقفوا الموقف المتميز بعيداً عن تقليد أولئك الأناسي و اللَّهاث وراء مصطلحاتهم في الفكر والسلوك.

ومهما يكن من أمر فإن الناظر في سنة النبي عليه الصلاة والسلام نظر بصيرة وأمانة لا يعوزه أن يقع على الكثير الكثير من الصور التي تؤكد المقولة المشار إليها بشأن العلاقة الوثيقة ووحدة المنهج بين القرآن في معالمه الغزيرة بالعطاء وبين بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، بل إن هذه الظاهرة على صعيد البناء وتنمية طاقات الأمة الفاعلة وقدرتها الذاتية في ظل عقيدة التوحيد تنبئ عن نفسها ـ كما أشرت غير مرة ـ وتكاد تستعصي شواهدها على الحصر

فمن حديث رواه البخاري وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**ولا يقل أحدكم عبدي، أمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي**» وعند أحمد «**... كلكم عبيد اللّه وكل نسائكم إماء اللّه**» الحديث.

هكذا ينهى النبي ﷺ ـ على صعيد العلاقات الاجتماعية ـ أن يقول المسلم عبدي، أمتي وأمر بالبديل وهو: فتاي، فتاتي، غلامي. صحيح أن القرآن الكريم جاء باللفظ على أصله كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾[النور:٣٢] ولكن كان ذلك مع أسباب بيان الأحكام على معهود الناس، بدليل أنه قال في موطن آخر: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [النساء:٢٥] فعبَّر بالفتيات لا بالإماء.

وهكذا يوجه رسول اللّه ﷺ إلى البعد عن كل مصطلح تشوبه شائبة المخالفة لواحدة من حقائق هذا الدين أو تشي باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان كبراً وتعاظماً، فحقيقة العبودية إنما يستحقها اللّه تعالى، ولأن في المصطلح السابق تعظيماً لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه. يشهد لهذا ما ما جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم، وأحمد ـ كما سبق ـ ومسلم: «**كلكم عبيد اللّه وكل نسائكم إماء اللّه**» وما أجمل ما قاله الإمام الخطابي في هذا المقام، يقول رحمه اللّه: «المعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع للّه عز وجل، وهو الذي يليق بالمربوب».

أرأيت إلى هذا الهدي النبوي في ظل الكتاب العزيز؟ لقد كان له من الأثر الطيب ما كان في البنية الاجتماعية يومذاك، والمحور فيه تمتد أبعاده إلى العلاقات الاجتماعية على وجه العموم والمنطلق المقصود ولا ينحصر بزمان. والحمد للّه القائل في كتابه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات: ١٣].

* * *